الوقائع الحربية فى الشعر العربى

للرئيس نعمان ماهر الكنعانى

من بين أبواب الشعر العربى العديدة باب هام جدير بالحديث أيما جدارة ذلك هو باب شعر الوقائع الحربية . وإنى لا أزعم أن هذا اللون من الشعر لم تصبه عناية الباحثين فقد بحثه كثير من رجال الدراسات الأدبية وتاريخ الأدب ، وأشاروا إلى مواطن الإجادة والإبداع فيه ودلوا على قيمته الأدبية والفنية ، إلا أنى لم أقع على من خصه بهذا الوصف أو بحثه بحثاً عسكريا أدبيا فى آن فإن جل باحثى هذا الشعر كانوا يضمونه تارة فى باب الحماسة وأخرى فى باب الفخر وأحيانا يزجون به فى موضوع المديح وقليل منهم يضمه إلى الوصف ، وقد مررت أثناء مطالعاتى لدواوين القدامى بقصائد احتوت على الكثير من أقسام المعارك التى نظمت تلك القصائد بها ، أى أنها احتوت على أكثر صفات المعركة كالتحشد والاستطلاع والتقدم والتصادم واستثمار الفوز إلى غير هذه المصطلحات الحديثة . وكانت تصور تلك المعارك تصويرا بارعا يخيل لمن يقرؤها أنه يشاهد عرضاً مصورا لهاتيك الوقائع على تفاوت فى السرد والتصوير فمن الشعراء من جعل منظومته لوصف المعركة فقط ، ومنهم من مزجها بالمديح أو ذكرها على سبيل الفخر أو أشار إليها فى معرض الحماسة .

من هؤلاء الشعراء أبو فراس الحمدانى وأبو الطيب المتنبى وأبو تمام الطائى وابن هانىء الأندلسى وآخرون غيرهم سجلوا فى شعرهم كثيراً من المعارك التى اشتركوا فيها أو شهدوها أو سمعوا بأنبائها . ولكن الذى أجاد وبرع إجادة ظاهرة هو الحارث بن سعيد أبو فراس الحمدانى لأن هذا الشاعر اجتمعت له إمارة السيف والقلم اجتماعاً ندر أن يتم لغيره .

فاستمع إليه يحدثك عن حرب له مع الروم واقرأ صفحات هذه المعركة فى هذه الرائية صفحة صفحة تعلم صحة ما ذهبنا إليه .

قال يصف تقدم جيشه فى بلاد العدو :

وجبن بلاد الروم ستين ليلة تغادر ملك الروم فيمن تغادر

ولكن ماذا كان موقف سكان البلاد التى سارت فيها خيول الحمدانى ستين ليلة :

تخر لنا تلك القبائل عنوة وترمى لنا بالأهل تلك المصادر

ثم استمر على قراءة القصيدة لتعلم اقتراب جيشه من جيش العدو أمنى لتعلم التقدم نحو الهدف :

ولما وردنا (لدرب) والروم فوقه وقدر (قسطنطين) أن ليس صادر

ضربنا بها عرض (الفرات) كأنما تسيرنا تحت السروج الحوائر

إلى أن وردنا (الرقتين) نسوقها وقد نكلت أعقابها والقاصر

فهنا اصطدم جيش الحمدانى بجيش قسطنطين وهرب الأخير واستمر الأول على الزحف :

ومال بها ذات اليمين (بمرعش) مجاهيد يتلو الصادر المتصادر

فلما رآنى جيش (الدمستق) زاحت

عزائمهـــا واستنهضتهـا البصائر

لقد اصطدم هذا الجيش بقوات جديدة للعدو هى جيش الدمستق فاستمع إليه يصف هذا الصدام الجديد :

وما زلن يحملن النفوس على الوجى

إلى أن خضبن بالدماء الأشاعر

وولى على الرسم (الدمستق) هاربا

وفى وجهه عذر من السيف عاذر

فدى نفسه بابن عليه كنفسه وفى الشدة الصماء تفنى الذخائر

لقد تحملت خيول الحمدانى عبء المعركة ثقيلا إلى أن خضبت أشاعرها بالدماء حيث تم له النصر واندحر جيش الروم وفر قائده الدمستق بعد أن ترك ابنه أسيراً لدى أبى فراس .

هذه أبيات صورت معركة من معارك العرب تصويراً يكاد لا يختلف كثيراً ووصف المعارك الحديثة بالكتابة .

وهذا ابن هانى الأندلسى له باع طويل فى تسجيل المعارك فى شعره ، فاقرأ قصيدته الدالية التى يصف فيها نصراً شهده لجيش جعفر بن على بن غلبون واستيلاءه على قلعة كتامة قال :

أقمنا فمن فرسانا خطباؤنا ومنبرنا من بيض ما تطبع الهند

ولو لم يقم فيها لحمدك خاطب علينا وفينا قام يخطبنا الحمد

على حين لم يرفع بها لخليفة منار ولم يشدد بها عروة عقد

وكانت شجاً للملك ستين حجة وماطيب وصل لم يكن قبله صد

***

بها النار نار الكفر شب ضرامها
ولو حجبت فى الزند لاحترق الزند

***

وعادت بهـا حرب الأزارق لاقحا
وإن لم يكن فيها المهلب والأزد

***

ولما اكفهر الأمر أعجلت أمرها
فألقت وليد الكفر وهى له مهد
أخذت على الأرواح كل ثنية وأعقبت جنداً واطئا ذيله جند

لقد تحشد جيش ابن غلبون لغزو هذا الحصن المتنع العاصى الذى لم يطع الخلافة الأندلسية ستين عاما حتى كان شجا فى حلق الدولة وتقدم إليه ورماه بالنار فصمدت واكفهر الأمر على الفاتح فأعجل الضربة حتى سقط بين يديه وأحاطه بعسكره بعد أن سد على المدافعين الطرق والمسالك ودهمهم بجنده فتساقطوا جثثا وأشلاء .

ثم هذا أبو الطيب المتنبى يسجل وقعة للأمير الخالد سيف الدولة الحمدانى بقصيدة رائعة شهيرة هى تلك التى يقول فى مطلعها على قدر أهل العزم تأتى العزائم .

وكان سيف الدولة قد غزا قلعة الحدث وصحب معه الشاعر :

خميس مشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم
قليله وقت ذوب النفس ناره فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

أما وقد علمت هذا الجيش ومقداره وتحشده فاعلم حاله قبل الصدام : —

تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا وفر من الأبطال من لا يصادم

وهنا تخلص الجيش الحمدانى من الضعفاء وسيدخل المعركة قريبا . وبعد فاستمع إلى الشاعر يصور لك تهيئة القائد وأسلوب دخوله المعركة :

ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافى تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللبات والنصر قادم

وينخذل العدو بعد هذه الضربة ويستثمر الفوز ابن حمدان فيقول الشاعر :

تترتهم فوق (الأحيدب) كله
كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى
وقد كثرت حول الوكور المطاعم

ثم يعلن لك المتنبى خسائر العدو فى هـذه المعركة ويذكر هرب قائدهم ومقتل ابنه وصهره وابن صهره حيث يقول :

أفى كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم
وقد فجعته بابنه وابن صهره وبالصهر حلات الأمير الغواشم
مضى يشكر الأصحاب فى فوته الظبى
بمـا شغلتها هامهم والمعاصم

ففيما تقدم من رائعة المتنبى هذه قرأنا صفحات المعركة كما اصطلح عليها الفن العسكرى الحديث من تحشد إلى دخول المعركة إلى استثمار الفوز .

هذه أمثلة من أمثلة شعر الملاحم العربية تدل على غنى الأدب العربى عامة والشعر منه خاصة فى هذه الناحية من نواحى تدوين الوقائع بالمنظوم ، وعسى أن تكون لنا عودة إلى هذا الموضوع فنأتى بأمثلة أخرى لنقرأ فيها أخبار وقائع أخرى .

نعمان ماهر الكنعانى
الرئيس فى الجيش العراقى

لم يبق فى إدارة الرسـالة
إلا نسخ محدودة
من كتاب
كتب وشخصيات
للأستاذ سير فطب